واذا كان المخيم هو رمز فقدان الهوية القومية المحددة ، فان مكـــان العمل رمز الاستغلال . وهكذا فأم سعد تضحو لاجئة (معنى قومي) وعاملة مستغلة (معنى اجتماعي) . قمعان مترابطان ديالكتيكيا .

هذه الشروط البائسة تمهد لخلق المستوى الثالث ، مستوى تملك الوعي. فسنوات الخيام والتشريد والاستغلال أعطت تجربة متراكميـــة غنية كفيلة بخلـــق شخصية فلسطينية جديدة، وهكذا فان التاريخ يسحب معه الفلسطيني (شكل ـــ ذات) ويجعله يعبر مسار تجارب طويل . وبعد هذا المسار تبدأ لحظة جديدة ، لحظة فاعلة كسرت كل جسورها مع اللحظة السلبية الجامدة . فأم سعد هي اذن المحصلة التاريخية ـــ الاجتماعيه لكل هذه السنوات من القمع المتعدد الاشكال . ونلمس هنا ديالكتيك الذات والموضوع في التاريخ . ففي البدء كانت الذات (أو بشكل أدق شكل ـــ الذات) تشكل جزءا خاما من الموضوع ، تتكامل مع شروطها دون أن تستطيع ان تفعل بها او تغيرها، بعد ذلك ومن خلال الممارسة «انخلعت» الذات عن موضوعها وطفت على السطح أي اصبحت قادرة على رؤية مساحـــة البؤس الشاسعة التي تعيش فيهـــا ، واصبح الفلسطيني بدون أوهام ، ولم يعد يكتفي برحيله الصامت والصوفي الى أرض الوطن ، بل أضحى واعيا لعمق مأساته ، لكن هذا الوعي مع ذلك لم يكن مرتبا ودقيقا ليدفعه بنهج الطريق السليم لتحرره. في اللحظة الثالثة لم يعد الفلسطيني مراقبا بوعي لحاضره فقط ، بل بدأ يتسيد على واقعه بمعرفة السبل والادوات الضرورية للتحرير ، وهكذا وبعد أن كان الموضوع هـــو السيد في اللحظـــة الاولى ، أصبح شكـــل ـــ الذات (الفلسطيني) هو المسيطر(١٩). وعملية التسيد هذه هي عمليه تطور Processus وليست معطى مباشرا ، فأم سعد هي محصلة طويلة تتضمن عجوز ١٩٤٨ وابنهـــا المتمرد أيضا .

في هذا المسار المتضمن لتسيد الذات على الموضوع ، يبقـــى البراكسس Praxis هو الحلقة الاساسية ، حيث ان بدء المسار وتصحيحه وتحديد هدفه مشروط بشكل جوهري بالممارسة والحركة الفاعلة ، ذلك أن صحة المشروع مهما كان نوعه سياسيا أو اجتماعيا لا تتأتى من صحة الافكار المركبة له بل من صحة هذه الافكار بعد امرارها على حجر التجربة .

بعد كل هذا تصبح أم سعد وعيا جمعيا شفافا قادرا بتراكم تجربته على محاكمة الامور . ويتلاشى عالم سلبي بقيمه ليظهر عالم جديد وبقيم جديدة . كما تتوارى رموز لتحل محلها رموز جديدة « كان المختار يحكي لي القصة وكنت أضحك بعبي ، وقلت له اخيرا « مليح اللي ما ضربوك ، احمد ربك عالسلامة ! « غزعل » . فالمختـــار ذلك الرمز الساقط يعطي مكانه وليس طوعا للفدائي الذي بدأ يعـــد نفسه ليخلق عالمه الجديد »(٢٠). أنا أعرف أن سعد سيخرج من الحبس . الحبس كله ! أتفهم ؟

يتغير هنا طعم الاشياء وتختلف دلالاتها ، فخيمة الفدائي ليست ذلا كخيمـــة المخيم « خيمة عن خيمة تفرق » . ويجب أن لا ننسى هنا بأن الممـــارسة هي التي تجاوزت واعادت بناء خيمة المخيم لتجعل منها خيمة فدائي .

يتغير طعم الاشياء ليس بتعال صوفي وتسام روحاني عقيم بل من خـــلال اعـــادة صنع الاشياء « لما مضيت من توي الى المخيم ، وفي مستنقع الوحل شهدت ام سعـــد واقفة مثل شارة الضوء في بحر لا نهاية له من الظلام »(٢١).

نلمس هنا على جملة متغيرات تعبر عن مرحلة جديدة ، من خـــلال ثنائيات عدة :